

العالم العربي

بين الديمقراطية والعلم
في الماضي وفي المستقبل^(١)

من محاسن الاتفاق ، أنني كنت ، عندما تلقيت الدعوة للمشاركة في هذه السلسلة من الأحاديث ، أطلع مع صديق لي ، كتاباً عنوانه « نشأة الإنسانية » فيه عرض بليغ محكم لارتقاء الثقافة الإنسانية ، وعوامل ذلك الارتقاء . وكنا نطلع على وجه خاص ، فضلاً عن هذا الكتاب ، أفردة مؤلفه روبرت بريفولت Robert Briffault للمعهد الفكري الذي اشتهر في بغداد ، أيام المؤمن وبعدها ، باسم « دار الحكمة » . وقد اتخذ المؤلف اسم هذه الدار ، رمزاً لما أسماه الرب من خدمة جليلة الى الثقافة الإنسانية ، فأثنى ولم يرض ولكنه ثناء العالم المتحكن ، والكتاب الذي يزن الكلام بموازينه الدقيقة . وقد مهد له ، بعد كلام طويل على عقم الحضارة البيزنطية وجودها ، رغم مباهيها الظاهرة ، بقوله ، ان الشعلة التي سرت الى الحضارة الاوربية النعنة ، فأضاءت فيها نوراً كشف أمامها مجال الطريق الوعر ، لم تسر من الجمر انظامت تحت اكوام الخراب في اوربا اليونانية الرومانية ، ولا من غزاة الشمال الأجلاف ، بل من العرب

قبل ذلك بأسابيع ، كنت قد أخرجت اخراج كتاب « تراث العرب الذهني » ، ونشر محاضرة « معنى الديمقراطية » . اما الكتاب فلامتاذ فدري حافظ طوقان ، وأما المحاضرة فللدكتور محمد عبد الله العربي بك . فرسخت في ذهني ، على غير وعي مي ، صلة خفية بين هذه المطالعات وبين موضوع الحديث . واذا أنا اردد لتضييق ، لنا اذا صرفنا النظر عن المعاني الدينية العالية التي أشرفت على أرجاء العالم ، من هذه الأرض فليس ثمة ريب في ان نصيب الحضارة العربية ، في بيان الحضارة العالمية ، انما يلخص في ثلاثة ألقاظ ومعنيين . أما الألقاظ فهي « الشورى » و« دار الحكمة » . وأما المعنيان فهما على حد تعبير العصر الحديث الديمقراطية والعلم . وأنا انما اتخذ من لفظ الشورى ، رمزاً لجوهر النظام الديمقراطي في الحياة من حيث هو أسلوب للحكم ، وقانون للاخلاق الفردية والاجتماعية . وأحد من لفظي « دار الحكمة » رمزاً للعقل الذي حللته اسرار الكون ، وأومأت اليه رؤى الطبيعة ،

(١) انجمن حديثرئيس محرم انتخب في ٢٠٠٧ في ٢٧٠٠ مارس ١٩٥٢ في السنة الأولى ، المرزوق

فالطلق باحثاً منقياً عن الحقيقة ، حرّاً من كل قيد يثقله ، ألا قيد التفكير السليم هنا ، في هذين الجوهرين من جوهر الامران ، يتصل حاضر العالم العربي ، من ناحية بلباب تاريخه العريق المجيد . ومن ناحية مستقبل منزلته في بناء الحضارة القوية بناءً جديداً . وإذا كانت شعلة البعث الاوربي سرّت من دار الحكمة الى تلك القارة عندما بدأت تتحمل في احضانها ، بذور الحياة الجديدة في مستقبل عصر الاحياء ، ففي الواسع كذلك بن سام العرب اليوم وفي الاجيال المقبلة ، في توجيه الحياة الجديدة التي بدأت تتحمل بذورها الآن ، حتى بين انقاس الحرب وخزائنها . بين ان ذلك واجب علينا ، اذا عشنا ان ترتفع الى مستوى ماضيها وراثتها ، وان تكون مخلصين لاقصنا وأمنيتنا . وعمل الانشاء عمل مستمر ولا سيما بعد حرب طاحنة كعنه الحرب ، وبذرة التي تبصر اليوم يعدها ابناؤنا وحفدتنا في المستقبل منزلة عالية ومشاركة فعالة ، في الارتقاء الانساني . والدعوة الصالحة الى النهضة ، التي ما فتئت تتجاوب اصدائها في جنبات العالم العربي ، لا تستقيم على أساس صحيح ، في جو المستقبل الذي بدأنا تتسم أقدانه ، إلا على هذا الأساس

ذلك بأن الأساس في النهضة الصحيحة ، هو الاحساس بالكرامة ، والاحساس بالكرامة يستيقظ ويستمر بالانساب الى آباء وأجداد نضربهم ، ومضرب يباهي به ، وأبجاء لنفسها . فإذا استيقظ هذا الاحساس فان كل مسبب اذا أصبح الشأن لتربية القويمة والتوجه السديد فاذا وصلنا حاضرنا بماضيها ، اضطرت في هبوط معاني الرجولة ، فنتسبين بالخماطر التي تعرض سبلنا . وإذا نقبنا عن روائع تراثنا في الحرب والسلم ، في الادب والعلم والدين ، في السياسة والأخلاق ، استبقام لنا مسي الاستمرار في تاريخنا ومعنى الانعزال بذلك السبع الروحي الذي استقت منه حضارتنا وهي في ذمتها

كل مهمة قومية حديثة قامت على هذا الاحساس ، لان الشعور بالقومية هو شعور بالشخصية ، والشعور بالشخصية لا ينفك إلا ، إذ يدركنا بأن لنا كرامة تريد أن تثبت وجودها وتعرض احترامها على الناس . ولن نعد سرعة في تاريخ العرب الحديث ، لتكني لاقتناعنا — ان كان نمة حاجة الى هذا — لتثبت نصير القوي العربي نستيقظ على نهيات الادب العربي بحيث من مستوى تخزون بعض التي منمنعه . ولقد انما اعلمنا على دراسة هذا الادب التي وادبها جماله وروعته . أحسن من ان يعده فقط بلاءاً ، مؤلفه سبب اقتربت من قلب الروح العربية . فذهبنا انما فيها كيان في حركته ، فرسخ وعماهم وسبق عرفهم شي تعمل لن شمول المعرفة حدودها ، فذهبنا و هذا السبب التام ، وقتاً لوجودها والتداعيات الثقافية ، وايزد انماهم من حركه مددعة انما التي يتوخا ، ز نمة قبا لشدهم . ولكن انما التي تثيره حرب ، ووجدنا انما سببها . وانما انكر وانما انما تحرك

الشعور وكثيراً ما تهي الأعصاب ، كل ذلك يجب عنا أحياناً ان حكم العمود والاتفاقات وآراء الاقطاب ، متصل أوثق اتصال ، بلباب ذلك الماضي الجيد الذي نخرج به ونحاول به وبناء صرح المستقبل على أساسه

فالديمقراطية ، تواجه اليوم أعظم تحدٍّ وُجّه اليها ، وهي تواجه كذلك فرصة متاحة لها ، لتبني بعد الحرب اجتماعاً بشرياً ، أركانها ان الحكم الشعبي يمكن قيامه بغير طغيان زعيم فرد متحكم ، وان الحرية مثل ظلٍ يمد ، ولكن الذئب منه مستطاع ، وان رفع مستوى ثقافة الجماهير ، وفقاً مطرداً مستمرّاً في تناول ، وان في قلرة الناس ان يقربوا ، مهما يظل الطريق وينتزع من العدل الاجتماعي ، وان اتاحة الحياة الوافرة لكل فرد من افراد المجتمع واجب واقع على كامل كل انسان

وفي سبيل تحقيق هذه الاغراض العالية ، يجب ان تتعاون الديمقراطية والعلم ليس في هذه المعاني معنى ، جديد لم تنطوع عليه التعاليم المسيحية والإسلامية ، بل ليس فيها معنى ، لم يفرغ على تفاوت في قالب من التطبيق العملي في العهد الاول من الحضارة العربية أشرت قبلاً الى محاضرة الدكتور العربي بك . فاليكم مقتطفات مما قاله عن البادئ الديمقراطية في المسيحية والاسلام : قال — وأنا أخلص قوله — :

هذه الاسول والدظام دعت اليها الديانة المسيحية ذصرة سريعة في وصولها الى اقامة العدل والرحمة والبر والاحسان والسوانة بين البشر وفي تحرير ان الانسان في انسانته الحقبة جدير بالاحترام قال بحبة اذن مهدت البشر الاعد بالديمقراطية مما تدبّر اليه من احكام عقلية وافعال ، وبما رسمته من حدود سلطان الدولة على الفرد ومدى طاعة الفرد لاسلام الدولة ، وبما رسمت من شأن الفرد بانساج اني تكبير ونطاق غايته من هذه الحياة ثم جاء الاسلام ونزل الرأى ، فجعل تلك الافعال والاحكام العقلية التي دعت اليها المسيحية ثم عدت بالانسانية الى الامل فدعا دعوة سريعة الى نظام حكومي هو الديمقراطية في اسمي اوضاعها . اسول هذا النظام هي اولا اختيار رئيس الدولة وهو الخليفة بالبيعة او الانتخاب بالدم . ثم تعيينه ل تعريف شؤون الدولة بالشورى — وهو النظام البرلماني الحديث . ثم فرغ في عديد الآيات وتوافق الاحاديث تلك الادي . الاسامية التي في سبيل انجز ركان الشورى والترسية وتوراث اخرى سبقت اولخشاء مبادئ الحرية والاعاء والسوانة ثم فرغ تلك الاسول الدستورية التي بدونها يكون النظام البرلماني اسماً على غير معنى ، حرية التوث والرى ونشقه ، على قور حق التعدد الى حد ما تعدد اية اشرايح الاوروبية في القرن الثمشرين ، كما يدل نصايت انضريف ، من رأى حكمه تكراً فينبو جديد (اي بانوة) قد . يستطاع قبله . (اي بالذات الصفحات العامة وتبنيه الرأى العام) قد لا يستطاع قبله وهذا ضعف الايز وكبديل عليه اخيراً جواب ذلك الاعرائى قعيلفة عمر (نوروزيت فيك اخرجوا قومناه محمد الديف) مما ردت اقتباسه في التعبير بغير

هذه هي الشورى في الناحية الواحدة . وفي الناحية التي تقابلها دار الحكمة وما ترمز اليه أنا أعز ان "صغر عصر سرعة ، وان الوقت لا يتسع لكل مناء لدراسته ، ماخلقه العرب في العلوم والتموز جميعاً ، جنباً الى جنب ما تحتاج اليه من ممدات الحياة والكفاح . ولكنني اؤمن كذلك بان دراسة ما تحتاج اليه من ممدات العقلية والمادية ، لا تحدى وحدها ولا

تستقيم ، ما لم تلتصق القرائح والنفرس بلفاح التراث الجيد

لأن ما أبدعه العرب في ميدان الثقافة قد أتى الدهر على جانب منه ولا سيما في العلم ، فلبس في ميدان العلم شيء دائم . وقد تكون دراسة ما أبدعته تمريناً في التاديع لغير العرب ، ولكن في منزلة الركن الأساسي في صرح حياتنا الجديدة ، وهو عنصر لا غنى عنه في إعدادنا للاضطلاع بالثيمات الجسام التي لا بد أن تقع علينا ، في عهد الترميم والانشاء الذي يلي الحرب إذا شئنا ألا نتخلف عن الاضطلاع بها . وقد يكون ابن الهيثم أصاب أو أخطأ في بعض آرائه وقد تكون مجف النسيان قد أسدلت على بعض آرائه الصائبة ، ولكن ذلك لا يهمني بقدر ما يهمني ان ابن الهيثم قد أبدع في الصريات من الف سنة من الزمن ، وان الحضارة الحديثة أخذت عنه ما أبدع فكان لينة من بناء صرح العلوم الحديثة . وقد تكون مئات المؤلفات والرسائل التي ترجها وألها رجال دار الحكمة ، او غيرهم من سبق عهدنا الزاهر او تبعه مما لا يرجع اليه الآن لمعرفة الرأي الاخير في هذه المسألة العلمية او تلك ، ولكن ذلك في نظري يأتي في المنزلة التالية ، للمعزى التاريخي الاول والام المتربع من ذكر دار الحكمة . هناك جمع الخلفاء طائفة من الرجال ، بغير تمييز بين عنصر او منعب ، وأطلقوا لهم حرية البحث ، وأمدوم بالمال وضروم بالرعاية وشجروم بالاهتمام الخاص فانطلقوا يعشون عن كتب العلم القديم ينقلونها الى العربية ، ولوفوا في اقطار الشرق الاوسط جميعاً بمحمون الحقائق ويصفونها ، وادوا مسائل الحساب والجبر والفلك والكيمياء والطب وأبدعوا فيها فوضعوا فيها أشهر المؤلفات ، ومنها ما بقي كتباً تدرس في الجامعات الاوربية الى قبل قرنين من الزمان . قال ريفلت في كتابه الذي أشرت اليه في الاستهلال « ان الذي لطلق عليه اسم « العلم » قام في اوربا نتيجة لروح جديدة في البحث وأساليب جديدة في الاستطلاع وطريقة جديدة في التجريب والاستفراء ، والقياس — هذه الروح وهذه الاساليب ، مردها في اوربا الى العرب » فالعرب حفظوا من الضياع ، خلاصة الحضارات القديمة التي اتفوا بها وأضافوا اليها من مبتكرات عقولهم ثم فتحوا الحياة الاوربية الجديدة في منسبل عصر الاحياء هذا التراث الجيد . ونذنا كنا حين نقرأ العلوم الحديثة لا نجد كنفناً من الكشوف للطبيعة الاساسية يعزى الى العرب ، فيجب ألا ننسى ، ان العلم مدين للثقافة العربية . وكثر من كشف خطير ، انه مدين لها بحياته

وكذلك نستقيم لنا عناصر الشعة الكبيرة الواقعة على عواتقنا ، ونحن نحتار هذه الرحلة ، من أزمة الحضارة الحديثة . ولا بد ان تجلي الغماء يوماً ما على وجه لارب عندي فه الحرب الشاسة ، ليست سوى حادثة — عظمة ولكنها عابرة — في ثورة متغلطة الى

أصول الحياة نفسها ، في مخاض علم جديد . والثورة إما أن تقاومها وإما أن تسلم بحقيقتها وتحاول جهداً أن توجهها نحو الهدف العالي الذي جعلته هدفك . انك لا تستطيع أن تتجاهلها وانتقل في هذا العالم الجديد ، لكيمياء اجتماعية جديدة ، عنصرهاها الديمقراطية والعلم . انهما قوتان رئيسيتان من قوى العمران . وهما ابدأ متفاعلتان . فالعلم ونتاجه النظري وتطبيقه العملي يتيح للديمقراطية العناصر التي توسع من نطاقها ، وترسخ من أركانها ، وتعمم من نعمها . وهو يأتي القيود وأما أن يهجر الأرض التي تنقله معها القيود ، وأما أن ينحني ويرزح تحت عبثه . والديمقراطية تنهي العلم التربة والجور الذين يزكو فيهما غرسه ، وينثر ورقة ، وينضج ثمرة . ومن مفاخر الحضارة التي نحن وراثتها في إبان ازدهارها قبل ألف سنة ، ان الخلفاء والأمرأ كانوا يبيحون للعلماء والباحثين حرية كاملة بغير نظر الى مذهب أو عنصر . ولا عجب فالمسيحية والاسلام ، حثا على العلم ووطداً للفنانات الديمقراطية وأساليبها . وهذا الاقتران هو سر ما تعبت به الحضارة العربية والحضارة العالمية ، من حياة

ولكن الأصول الديمقراطية القديمة يجب أن تيمث فيها حياة جديدة ، وأن تطبق تطبيقاً يكفل علاج الأدواء الاجتماعية والاقتصادية ، التي مرد معظمها الى ارتقاء العلم والصناعة وتكدس الثروة في أيدي فئة يسيرة من الناس . فالعلم الذي أهدى الى الحضارة أعظم الأيدي بتسهيل أسباب العيش على كثيرين من الناس ، أفضى الى غير قليل من التناوت والآثرة والتوزيع الخائر والزعة المادية

وإذا كانت السياسة في أثناء الحرب ، خادمة الخطة الحربية فإنها يجب أن تعدو بهد الحرب خادمة العلم . فيتمن عليها حينئذ ان تضمن ان تمار العلم لا تصبح جزافاً ولا يساه استعمالها . وهذه القاعدة يجب ان تكون التاموس الاساسي ، الذي تقوم عليه الكيمياء الاجتماعية الجديدة . اذ لا يكفي ان تسعى ، وان يهرق الدم الزكي في سبيل تأييد حقوق الانسان السياسية ، بغير ان تقضي على الجوع والمرض والتدخل بين العمل جنباً الى جنب القضاء على العنف والاستبداد وسيلة لتسخير الناس . عندئذ نستطيع ان ننضج معنى وحياة في ذلك الحق الاساسي الأول الذي يشمل المطوق جميعاً ، وهو « حق الحياة والحرية ونشدان السعادة » . فتواجه علينا اذا شئنا ان نرتفع الى مستوى الأمان والآمال ، التي كثيراً ما نمرب عنها ونطالب بتحقيقها ، هو ان نعمل حاضرنا بما نتمنى مستقبله ونشجوه . فقيه جميع الأصول التي يجب ان ينشئ عليها العالم الجديد . ثم علينا ان نعمل حاضرنا عملياً بترويض النفوس وبعداد العقول ، للمشاركة في هذا البناء ، ودهد ميدان الجهاد الأكبر بصبر بالقياس اليه ، كل جهد حربي . ومن مهملة ، يحقر منبهة ويستحفح حاضرنا ويضيق مستقبله